(٢٠) وقفة بين عام أفل وعام أقبل

الخطبة الأولى

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

نحن اليوم نودّع عاماً مضى وأفل، ونستقبل عاماً قد أطلّ علينا هلاله، وأهلّ علينا فجره. نرى الهلال فنقول: «الله أكبر، اللهمّ أهلّه علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحبّ وترضى، ربنا وربك الله»(١).

ودّعنا عاماً، واستقبلنا عاما.

ومن حقّ كلّ مسلم – بل من واجبه – أن يقف وقفة على رأس كلّ عام، يحاسب نفسه ويراجع رصيده: ماذا قدّم وماذا أخّر؟ ماذا فى صحيفة المكاسب وماذا فى صحيفة الخسائر؟ ماذا فى كتاب الحسنات وماذا فى كتاب السّيّئات؟

من واجب كلّ مسلم أن يحاسب نفسه، كلما أتيح له ذلك: أن يقف مع نفسه موقف محاسبة فى كلّ يوم وليلة، فينبغى أن يكون للعبد أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكّر فيها فى صنع الله عزّ وجلّ، وساعة يخلو لحاجته من المطعم والمشرب.

هناك ساعة للحساب ولتكن فى كل ليلة عند النّوم، فإذا لم يتيسّر للإنسان أن يحاسب نفسه عند النوم فى كلّ ليلة، فليحاسبها فى كل أسبوع.. فى آخر الأسبوع.. فى يوم الجمعة مثلاً، يحاسب نفسه على عمل الأسبوع: ماذا صنع؟ ماذا قدّم وماذا أخّر؟

---

(١) رواه الدارمى عن ابن عمر رضى الله عنهما، وقال الحافظ: (وأخرجه الطبرانى من طريق نافع عن ابن عمر نحوه باختصار وسنده ضعيف). لكنه يعتضد بما رواه الترمذى والدارمى عن طلحة بن عبيد الله أنّ النبى ﷺ كان إذا رأى الهلال قال: «اللهم أهلّه علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ربى وربّك الله» قال الترمذى: حديث حديث غريب (شرح السنة للبغوى بتحقيق الأرناؤط: ٥/١٢٨ برقم ١٣٣٥) و(الأذكار للنووى بتحقيق محيى الدين مستو: الحديثان ٤٧٣، ٤٧٤).

فينبغى أن يحاسب الإنسان نفسه قبل أن يُحاسَب، وأن يزن أعماله قبل أن تُوزن عليه، وأن يسأل نفسه قبل أن يصير السؤال إلى غيره: ماذا قدّم فى أوامر الله؟ وماذا صنع فى نواهى الله؟ هل فرّط فى الأوامر أم أدّاها؟ وهل أدّاها كما أُمر؟ وهل أدّاها لوجه الله أم أدّاها رياء للنّاس؟ وماذا صنع فيما نهى الله تعالى عنه من حقوق الله أو من حقوق عبادة؟

لابدّ من هذه الوقفة اليوميّة، فإن لم تكن فلتكن آخر الأسبوع، فإن لم تكن فلتكن آخر كلّ شهر، عندما يهلّ الهلال يقف الإنسان مع نفسه ويحاسبها: ماذا صنعت فى هذا الشهر؟ وليكن أميناً مع نفسه كما قال التابعىّ الجليل ميمون بن مهران: المؤمن أشدّ حساباً لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح! فالشريك، الشحيح لا يسامح فى دينار ولا درهم ولا دانق ولافلس!

فإذا لم يكن هذا، ولم يتم للإنسان حساب نفسه لا فى كلّ يوم ولا فى كلّ أسبوع ولا فى كلّ شهر، فليقف وقفة طويلة للمحاسبة عندما ينقضى العام ويهلّ عام جديد.

ليقف الإنسان مع نفسه محاسباً عن عام مضى: اثنا عشر شهراً، الشهر ثلاثون أوتسعة وعشرون يوما، اليوم أربع وعشرون ساعة، الساعة ستون دقيقة، الدقيقة ستون ثانية، كلّ ثانية من هذه الثوانى وكلّ لحظة من هذه اللحظات مسجّلة للإنسان أو عليه.

فهل يقف الإنسان هذه الوقفة على رأس العام ليتذكر ماذا قدّم فى عام كامل؟ ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** ﴾[الفرقان: ٦٢]. جعل الليل يخلف النّهار والنّهار يخلف الليل، فمن فاته عمل الليل تداركه بالنّهار، ومن فاته عمل النّهار تداركه بالليل، ومن فاته عمل الأسبوع تداركه فى الأسبوع الذى بعده، أو فاته فى الشهر تداركه فى الشهر الذى بعده.

وينبغى للإنسان أن يقف مع نفسه ليحاسبها، فالمؤمن من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأمانى.

الكيّس العاقل الفطن الذى يحسن التدبير والتقدير، هوالذي يدين نفسه ويحاكمها ويحاسبها، قبل أن تُحاكم فى يوم الدين، ويعمل لما بعد الموت، والعاجز الأحمق هو الذى يتبع نفسه هواها، يطلق لها العنان لتصنع ما تشاء، ويتمنّى على الله الأمانى، كأمانى اليهود والنصارى حينما قالوا: ﴿ **لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ** [فقال القرآن:] **تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ** ﴾[البقرة: ١١١] أمانى فارغة.. أمانى باطلة، لأنّها لا تقوم على أساس صحيح ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

«أسلم وجهه لله» إسلام الوجه لله رب العالمين لا شريك له، كما أمر الله رسوله أن يعلن ذلك:

﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢]

«وهو محسن»: يحسن العمل، ويحسن الأداء.

فلابدّ من الأمرين معاً: إخلاص الوجه لله، وإحسان العمل.

اجتمع جماعة من أهل الكتاب وجماعة من المسلمين، فقال جماعة من اليهود: نحن أولى الناس بالله وبدخول الجنة، لأنّنا أتباع موسى، الذى كلّمه الله تكليماً وآتاه الله رسالاته. وقال النصارى: نحن أولى بذلك، لأنّنا أتباع عيسى، روح الله وكلمته. وقال المسلمون: بل نحن أولى بذلك، لأنّنا أتباع النّبي الخاتم والكتاب الخالد. ونزل القرآن يحكم بينهم حكماً عدلاً، ويقول فى الأمر قولاً فصلا: ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ** [يهوديا كان أو نصرانيا أو مسلماً] **وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً** ﴾ [النّساء: ١٢٣، ١٢٤].

لابدّ من محاسبة النّفس.

«الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الأمانيِ»[1].

فرق بين الرجاء والأمنية:

الرجاء فى رحمة الله: أن يعمل الإنسان، ويبذل جهده، ويمتثل الأمر، ويجتنب النّهي، ويعمل ما استطاع، ويقول: أرجو رحمة ربى، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٨]، بالإيمان والهجرة والجهاد تُرجى رحمة الله عزّ وجلّ.

أمّا الأمنية فهى أن يتمنى الرحمة والجنّة والثواب العظيم دون أن يبذل مجهوداً أو يقدم عملا، فهذا مخالف لسنّة الله فى الكون وسنّة الله فى الشرع.

لابدّ من عمل ولابدّ لهذا العمل من حساب للنّفس.

نحن الآن نستقبل عاماً جديداً، ومن واجبنا أن نقف مع أنفسنا محاسبين على المستوى الفردى، وعلى المستوى الجماعى.

كلّ فرد ينبغى أن يحاسب نفسه.

والأمّة فى مجموعها ينبغى أن تُحاسب نفسها: ماذا فعلت فى قضاياها المعلّقة؟ ماذا صنعت فى مآسيها التى تصابحها وتماسيها؟ ماذا صنعت الأمة فى عام كامل مضى؟ ماذا صنعت أمّة الإسلام التى تبلغ ملياراً وربعاً أو ملياراً ونصفاً فى قضاياها الكبرى؟

ماذا صنعت أمّة الإسلام فى قضيّة البوسنة والهرسك خلال اثنى عشر شهراً مضت؟ لا زالت القضيّة كما هى، ولا زال النظام العالمى الجديد يعبث بالمسلمين

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم والعسكرى والقضاعى، عن شداد بن أوس رضى الله عنه مرفوعاً، وقال الترمذى: حسن، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخارى، وتعقبّه الذهبى بأن فى سنده أبا بكر بن أبى مريم واه (فيض القدير: ٥/٦٧ برقم ٦٤٦٨) و(كشف الخفاء: ٢/١٣٦ برقم ٢٠٢٩).

وبمقدّرات المسلمين. ما صرخ المسلمون صرخة تسمع وتُدوّى وتقول: ياعالم ياجديد، يامن تملكون ناصية الأمور فى هذا العالم « . . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[1]. مافعل المسلمون شيئاً حتى الاستنكار القوى لم يفعلوه، حتى مجرد المقاطعة مع ما يسمّى بيوغسلافيا لم تحدث. لا زال الصرب يعملون فى كثير من البلدان، وهم موجودون فى كلّ مكان، لم يتخذ أحد موقفاً ضدّهم.

ماذا صنع المسلمون فى قضيّة فلسطين. . فى أرض البنوآت. . فى أرض المقدّسات. . فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين. . أرض المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله؟

ماذا صنعوا بعد مجزرة مسجد الخليل إبراهيم؟

ماذا صنعوا بعد الاتفاق الهزيل الذى نرى آثاره السّيّئة اليوم؟ ولا زال (رابين) و (بيريز) وغيرهما يعلنون ويؤكّدون أنّ القدس هى العاصمة الأبديّة والموحّدة لإسرائيل.

ما معنى فلسطين بغير قدس؟

قضيّة فلسطين – قضيّة المسلمين الأولى – لازالت معلّقة، لولا بقيّة من شباب مؤمن ردّوا إلى الأمّة بعض الاعتبار. . . . . .

ماذا صنع المسلمون فى قضيّة كشمير؟

ماذا صنع المسلمون فى قضيّة الصومال؟

ماذا صنع المسلمون فى قضيّة جنوب السودان؟ والعالم يحيك المؤامرات ويدبّر المكايد لكى يسطو على السودان، لا لشيىء، إلاّ لتوجهه الإسلامى

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم، كلّهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، قال الترمذى: حسن صحيح.

وأوّله: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى..» انظر «فيض القدير للمناوى: ٤ / ٤٢ برقم ٤٤٨٩) و(المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى: ٢ / ٦٢٥ برقم ١٣٢٣).

OBEIKAN.COM

وحكمه بالشريعة، لذلك يتآمر عليه هنا وهناك، ويحاصره اقتصادياً لكى يركع أمام القوى العدوانيّة الطاغية.

ماذا صنع المسلمون إزاء هذا كلّه؟

ليست كلّ هذه الأشياء من صنع الغير وحده، لا، هناك أشياء من صنعنا نحن، والغير يستغلّ هذا.

لازال إخوتنا فى أفغانستان يقاتل بعضهم بعضا. إخوة الجهاد ورفقاء السلاح، لا زالوا يضرب بعضهم بعضا بالصواريخ، ولم يستطع أحد إلى اليوم أن يحلّ العقدة وأن يصلح ذات البين، وهذا شيىء مؤسف أن يحدث هذا بين إخوة الجهاد بالأمس.

وفى اليمن اليوم نجد هذا القتال الضارى، لا بين الشمال والجنوب حقيقة، ولكن بين الماركسيّين اليساريّين الاشتراكيّين وغيرهم من أبناء الشعب الواحد.

وللأسف نجد من العرب والمسلمين من يؤيّد من يسمّونهم الجنوبيين ضد الشمال أو ضد شعب اليمن، ونجد مجلس الأمن يسارع ويصدر القرارات، لا لشيىء، إلاّ لمنع الشرعيّة الدستوريّة أن تتمكن من السيطرة على هذا البلد وتحقن الدماء بعد ذلك.

ماذا يجرى فى بلاد الإسلام؟

مازال الأمر فى الجزائر كما هو، مازالت الدماء تراق، والبرآء يقتلون، ولا يعرف من القاتل؟ ولا زالت بلاد إسلامية شتّى تعانى ما تعانى.

أمر الأمّة أمر تنفطر له القلوب، وينقطع له نياط الفؤاد، أمر تذرف العيون من أجله العبرات، وتذهب النفوس من أجله حسرات.

أمر الأمّة أمر ينبغى أن تفكّر فيه.

ولكن من الذى يفكّر للأمّة بعد أن تمزقت شذر مذر، ولم يعد هناك حكماء للأمّة يمكن أن يجتمعوا كما اجتمع حكماء صهيون منذ نحو مائة سنة،

وفكّروا لإقامة دولة صهيون، وخطّطوا لإقامتها بعد خمسين سنة، وقامت الدولة بعد خمسين سنة بالفعل؟!

أين حكماء الأمّة ليجتمعوا؟

حكّام الأمّة تفرّقوا وتمزّقوا، وغلبت عليهم المصالح والأهواء، فهم قد أصبحوا أسارى لكيد أعدائهم، ووساوس خصومهم. يكيد بعضهم لبعض، ويمكر بعضهم لبعض، وخصوصاً بعد حرب الخليج الثانية التى مزهقت الأمّة شرّ ممزّق، بضربة واحدة، ضربها ذلك الشيطان المارد. . ذلك العدو الماكر الخبيث، فاستطاع أن يدمّر هذه الأمّةفى أموالها وثرواتها، وأن يجعل البلاد الغنيّة تستدين، وأن يجرّب فينا أسلحته الجديدة ويتخلّص فى أرضنا من أسلحته القديمة، ويدمرّ المنطقة بأموال أصحابها، ثمّ يحاول أن يبنيها بشركاته بأموال أصحابها أيضا، وهو يتحكّم فيها هنا وهناك: عسكريا بجنوده وأسلحته ووجوده العسكرى المكثف، واقتصاديا، بشركاته وتدخلاته، وسياسيا، بما يوحى به من وصايا ظاهرها المشورة، وباطنها الإلزام!

كل هذا تم بضربة واحدة (ضربة معلّم كما يقولون) استطاع أن يمزق الأمّة، والأمّة لا تدرى ماذا يُصنع بها؟

الأمّة فى حاجة إلى أن تراجع نفسها.

من يراجع للأمّة؟ إنّنا نطمع فى مجلس للحكماء يعلو على الخلافات السياسيّة، ويعلو على الاعتبارات المحلّيّة والإقليميّة والعرقيّة والقبليّة والطائفيّة، ويفكّر فى أمر هذه الأمّة. . أمّة القرآن. . أمّة الإسلام. . الأمّة التى يفترض أن تكون خير أمّة أخرجت للنّاس.

يا أيّها الإخوة:

ما أحوج الأمّة إلى أن تحاسب نفسها فىِ ختام العام، وتراجع نفسها، وتنظر: ماذا صنعت فىِ أمسها؟ وماذا تصنع فىِ يومها؟ وماذا ستصنع لغدها؟ هذا هو شأن الأمم الحيّة.

أمّا الأمم الميّتة فلا طمع فيها، ولا خير فيها، ولن تفكّر فيِ أمس ولا يوم ولا غد. لن تفكّر فيِ الأمس لتعتبر به، ولن تفكّر فيِ اليوم لتعمل له، ولن تفكّر للغد لتخطّط من أجله.

فيا ترى هل أمتّنا أمّة حيّة أم أمّة كُتب عليها الممات؟

إنّنا نعتقد أنّ هذه الأمّة لن تموت، لأنّها أمّة الخلود، هى ختام الأمم، هى الأمّة التى كلّفها الله بالرسالة الخاتمة. . بالرسالة الخالدة. ولذلك تكفّل الله أن لا يهلكها بسنة عامة، ولا يسلّط عليها عدواً من غيرها فيستبيح بيضتها،(١) وهيّأ الله لها طائفة لا تزال قائمة على الحق لا يضرّهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك.(٢)

هذا هو شأن هذه الأمّة.

هذه الأمّة أمّة باقية حتى تقوم الساعة، مابقى القرآن وما بقيت السنّة، وما بقى هذا الدين.

ستظلّ هذه الأمّة، ستظلّ فيها هذه الطائفة القائمة بالحق، النّاصرة له، المنصورة به، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾[الأعراف: ١٨١]. قبل ذلك فى هذه السورة (الأعراف) قال: ﴿ **ومن**

---

(١) روى مسلم فى صحيحه وأبو داود والترمذى وابن ماجة وأحمد عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله زوى لى الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإنى سألت ربى لأمتى ألا يهلكها بسنة عامّة، وألا يسلّط عليهم عدوّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإنّ ربى قال: يا محمد إنّى إذا قضيت قضاء، فإنّه لايردّ، وإنى أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مِنْ أقطارها، أو قال: من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يُهلك بعضا، ويسبى بعضهم بعضا» (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١٤/٢١٥ برقم ٤٠١٥).

(٢) روى أحمد والشيخان عن معاوية عن النبى ﷺ أنه قال: «لاتزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله، لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتى أمر الله، وهم ظاهرون على الناس» (صحيح الجامع الصغير: ٧٢٩٠).

﴿قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[الأعراف:١٥٩] ثم قال: «وممّن خلقنا أمة. .» فقال الحافظ ابن كثير: قد جاء فى الآثار أن المراد بالأمة المذكورة فى هذه الآية هى الأمة المحمدية ونقل عن أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى هذه الآية حديثا يقول: «إن من أمتى قوما على الحق، حتى ينزل عيسى بن مريم متى مانزل»(١)

علينا نحن إذن أن نعمل على تكثير هذه الطائفة. . على تقوية عضدها وشدّ أزرها، حتى تؤدى رسالتها تحت الشمس.

وقد جرت سنّة الله أنّ هذه الأمّة لا تجتمع على ضلالة، قد يضلّ الكثيرون بل قد يضلّ الأكثرون، ولكن تظلّ هذه الطائفة وهذه الجماعة قائمة بأمر الله لايضرّهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك.

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: «لاتزال طائفة من أمتى على الدين ظاهرين، لعدوّهم قاهرين، لا يضرّهم من خالفهم، إلاّ ما أصابهم من لأواء [أى من أذى] حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك، قيل: يارسول الله وأين هم؟ قال: ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس»(٢)، أى: هم فى فلسطين وحول فلسطين من بلاد الشام ومصر.

ستظلّ هذه الطائفة قائمة على الحق، فلا ينبغى أن يتسرّب اليأس إلى قلوبنا.

مهما تدلهمّ الخطوب، ومهما تتوالى الكروب، ومهما تتلبدّ الغيوم فى السماء، فهذه الغيوم لابدّ أن تنقشع، ولابدّ أن تنكشف يوما عن شمس ساطعة، ليس دونها غيم ولا سحاب.

---

(١) انظر: ابن كثير: جـ٢ / ٢٦٩ طبعة الحلبى.

(٢) رواه عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه فى المسند (٥ :٢٦٩) كما أورده الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧ :٢٨٨) وقال: رواه عبد الله وجادة عن خطّ أبيه، والطبرانى، ورجاله ثقات.

OBEIKAN.COM

إنّ بعد الليل فجرا، وإنّ مع العسر يسرا، والله تعالى يقول: ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾[الشّرح: ٥، ٦].

وجاء فى الحديث: «لن يغلب عسر يسرين»(١)، وقال ابن مسعود: لو دخل العسر جُحراً لتبعه اليسرحيث كان.

فالأمل قوى أن تستعيد هذه الأمّة ثقتها بالله، ثمّ ثقتها بنفسها، وأن تظلّ اليقظة وتستمر الصحوة، رغم قوّة الكيد الذى يُدبّر للصحوة وشبابها وأبنائها فى كلّ مكان.

الصحوة تُضرب بيد من حديد فيِ المشرق والمغرب، وفيِ السمال والجنوب، والضربات عنيفة. على قدر ما كانت الصحوة قويّة، جاءت الضربات قويّة وشديدة.

ولكن هل تستطيع هذه الضربات أن تخمد الجذوة، وأن تقتل الصحوة، وأن تؤخرّ المسيرة؟ قد تؤخرّها قليلاً، ولكن المسيرة ستستمر، والصحوة ستمضى، والتاريخ لن يعود إلى الوراء.

لن يستطيع هؤلاء أن يناطحوا المريخ، أو يوقفوا التاريخ، لن يستطيعوا أن يوقفوا الزحف، لن يستطيعوا أن يصدّوا الفجر عن الطلوع، أو الشمس عن الشروق.

لابدّ من الأمل، وهذا درس نتعلّمه من هجرة النبى ﷺ. فحينما هاجر وخرج من بلده مطارداً هو وصاحبه أبو بكر، تبعهما أحد فرسان العرب الطامعين فيِ الجائزة التى رصدتها قريش لمن يأتى بمحمّد وصاحبه حيّين أو ميّتين، وهى

---

(١) رواه الحاكم والبيهقى فى الشُعَب عن الحسن مُرسلاً، ورواه الطبرانى عن معمر والعسكرى فى الأمثال وابن مردويه عن جابر، بسند ضعيف، وأخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وأخرجه عبد الرزاق عن ابن مسعود موقوفا، وأخرجه الطبرانى عن ابن مسعود أيضاً مرفوعاً، وفى الموطأ أن عمر بن الخطاب بلغه أنّ أبا عبيدة حُصر بالشام فكتب إليه كتاباً قال فيه: ولن يغلب عسر يسرين. انظر (كشف الخفاء للعجلونى: ٢/ ١٤٩ برقم ٢٠٧٩).

مائة ناقة، ثروة أيُّ ثروة، وقد سمع بذلك ذلك الفارس الجُعْشُميِّ المُدْلجيِّ (سراقة ابن مالك بن جُعْشُم)، عرف من بعض القادمين أنّه رأى سواداً يشتبه أنّه محمّد وصاحبه، فأدرك أنّه محمد - ﷺ - فقال: لا ليس هو، وذلك ليدّخر الجائزة - التى يحسب أنه ضمنها - لنفسه، وأمر خادمه أن يهيّىء له الفرس والسلاح، ويخرج به خارج الديار.

وذهب فعلاً، وركب فرسه، وامتطى جواده، وأخذ سلاحه ورمحه وعُدّته، وطار بالجواد حتى أدرك النبيّ وصاحبه أبا بكر، فعثرت قدم فرسه مرّة ومرّة ومرّة، ثمّ غاصت أقدام الفرس فيِ الأرض، فعرف أنّ رسول الله ﷺ فى حماية ربه، فطلب منه الأمان، وقال له: اكتب لىِ كتاباً يكون آية بينى وبينك، فأمر عامر بن فُهيرة فكتب له بذلك فيِ رقعة. (١)

ثم قال له النبى ﷺ: «كيف بك ياسراقة إذا لبست سوارى كسرى»؟ قال له: كسرى بن هرمز؟! قال: «نعم كسرى بن هرمز» (٢).

سمع الرجل هذا وهو غير مصدّق أنّ هذا المطارد المهاجر يطمع فيِ أن يرث مملكة كسرى وكنوزه.

فأخذ هذا الكلام، ودخل بعد ذلك فيِ الإسلام.

حتى كان عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وقد فتحت مملكة كسرى وفتح إيوان كسرى فيِ المدائن، وجاءت كنوز كسرى، ومنها سواراه فتذكر عمر بن الخطاب بُشرى النبى ﷺ لسراقة، فنادى فيِ الناس: أين سراقة بن مالك؟ فجاء من وسط الجماهير وهو يقول: ها أنا يا أمير المؤمنين. قال: أتذكر يوم قال لك النبى ﷺ كذا وكذا، قال: نعم أذكره ولا أنساه، فقال له: تعال ألبسك سواريْ كسرى، وألبسه السوارين، وقال له: قل الحمد لله الذىِ أذلّ

---

(١) انظر قصّة سراقة مع النبى ﷺ فى (باب هجرة النبى ﷺ) من كتاب (مناقب الأنصار) فى صحيح الإمام البخارى.

(٢) تقدم تخريجه فى ص (١٥) فى أول خطبة الهجرة.

بالشرك كسرى وأعزّ بالإسلام سراقة بن مالك أعرابيّاً من بنى مُدْلج بّوالاً على عقبيه.[1].

هكذا كان أمل رسول الله ﷺ وهو مطاردُمن بلده، كان يعتقد أنه سينتصر، وأنّ دينه سيظهر، وأنّ الله ناصرُ عبده، ومعزُّ جنده، وهازمُ الأحزاب وحده.

وقد حدث هذا.

انتصر رسول الله ﷺ، وعاد إلى مكّة – التى خرج منها مطارداً – فاتحاً، يضرب الأصنام بيده فتخرّ على وجوهها وهو يقول: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١].

هذا هو شأن الحق، لابدّ للحق أن ينتصر، وإنّما ينتصر الحق إذا وجد له أهلاً ورجالاً يؤمنون به، ويدعون إليه، ويجاهدون فيِ سبيله، ويتحمَّلون تبعاته مهما قدّموا الغالى والرخيص من أجله.

لا ينتصر الحق وحده، إنّما ينتصر الحق بالرجال:

وعادة السيف أن يزهو بجوهره وليس يعمل إلاّ فى يدى بطل [2]

والله تعالى يقول لرسوله: ﴿ **وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأنفال: ٦٢].

نحن نأمل أن ينتصر الحق، وينتصر الحق بأهله المؤمنين المترابطين المتآلفين: ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فلنكن نحن من أهل الحق وجنده وأنصاره، فإنّ الإسلام لا ينتصر بغيرنا، لا يمكن أن ينصر الإسلام إلاّ أهله المسلمون، ولا يمكن أن ينتصر الإسلام بغير المسلمين. ولا يمكن أن ينتصر بجنود السماء ما لم يكن هناك جنود الأرض،

---

(١) انظر (الاستيعاب فى معرفة الأصحاب) لابن عبد البر (٢/٥٩٧)..

(٢) قائل هذا البيت هو (الطغرائى) فى لاميته الشهيرة.

جند السماء ينزل ليثبت جنود الأرض ويقوّى قلوبهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

نزلت الملائكة في بدر لتثبّت المؤمنين، فأمّا إذا لم يوجد مؤمنون فلن تتنزّل الملائكة على فراغ.

لنحمل روح أهل بدر، لنحمل روح المهاجرين والأنصار، المهاجرين: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، والأنصار: ﴿الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر:٩]. الأنصار الذين وُصفوا بأنهم يكثرون عند الفزع ويقلّون عند الطمع. عندما تطلب النّجدة. . عندما تطلب التضحية. . عندما يطلب البذل يكونون في أول الصفوف عند أول نداء، وعند الغنائم. . عند المكاسب والمطامع يكونون آخر الناس. وربما لا تجدهم أصلا.

هذا هو الذى نريده اليوم.

مجد الجدود عزيز أن نضيّعه ... مستعبدين وقد شادوه أحرارا

هيّا بنا يابنى الإسلام نُرجعه ... مهاجرين كما كانوا وأنصارا(١)

لنحمل روح المهاجرين والأنصار، ولنعمل من أجل هذا الإسلام، لا ندّخر وُسعاً في نصرته، لا نبخل بنفس ولا نفيس، ولا نضنّ بغال ولا رخيص، فليس لنا بقاء إلاّ بهذا الدين.

نحن بغير الإسلام لا شيء، وبالإسلام كلّ شيء، ولن يعزّنا الله إلاّ بهذا الدين، كما قال ابن الخطّاب: نحن كنّا أذلّ قوم فأعزّنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزّ بغيره أذلّنا الله.

---

(١) من شعر الأخ الصالح محمد زكى النجار من أبناء محلة زياد مركز المحلة الكبرى رحمه الله. (القرضاوى).